المصطلحات في عالم التدوين

الشيخ أحمد الأطرش السنوسي
أستاذ مشارك بالمعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية - وهران

قسمت بحثي إلى ثلاثة محاور : (ضرورة وضع المصطلحات من قبل أهل التخصص، وبداية ظهور المصطلحات، ومرحلة تطورها) .

- المحور الأول :

بالضرورة أبتدئ بتعريف كلمة "اصطلاح" في وضعها اللغوي، علماً بأنه مصدر "افتعل". فأبدل من التاء طاء. أي من "اصتلح" إلى "اصطلح" لوقوعها بعد حرف الإطباق، وحروف الإطباق من حروف الاستعلاء. والتاء من حروف الهمس. ولتقارب المخارج ابدلت طاء.[1]

وكلمة " اصطلح " تعني في معناها اللغوي وقوعَ الصلح بين متخاصميْن أو أكثر. أو وقوع الصلاح بين متفقيْن أو أكثر، فيكون معنى الإصطلاح : اتفاقَ جماعة على أمر مخصوص مطلقا. ثم خص اطلاقه على المصطلحات العلمية، من أجل تيسير الفهم على الدارس .

ولم تؤثر كلمة "الإصطلاح" عند العرب. ولا في القرآن، ولا في السنة. أي كلام النبوءة. إلا في قوله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه في وثيقة صلح الحذيبية : «اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه سهيلَ بنَ عمْرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين...».[2]

وإن اصطلح العرب على اطلاق أسماء على مسميات في الاستعمال الجاري. ولكن لم يكونوا يطلقون عليها كلمة اصطلاح. وكان مجال الإستعمال واسعاً عندهم. إما من باب اطلاق العام على الخاص أو العكس. أو التجوّز عن

الحقيقة إلى أن يصير المجاز نسيا منسيا. أو استعمال الدخيل من اللغات الأخرى.

وعلى سبيل المثال :

من الأول : اطلاق الدابة على الأنعام ذوات الأربع. وهي لغة : اسم لكل ما يدِبّ على الأرض. واطلاق الإسكافي على صانع الأحذية خاصة. وهو - لغة : كلُّ صانعٍ محترف.

ومن الثاني : اطلاق الوِرْد على اتيان كل شيء، وهو لغة : اتيان الماء. وفي القرآن : فلما ورد ماء مدين. واطلاق الرائد على طالب أي حاجة. وهو لغة طالب الكلأ.

ومن الثالث : اطلاق "الريشة" على رأس القلم، وهي في أصل اللغة كساء الطير. وكلمة "بريد" تطلق على الرسائل نفسها. والكلمة في أصلها اللغوي الدابة التي تحمل البريد. (3)

ومن الرابع : ما ذكره الجاحظ من أمثلة للدخيل قديمة الإستعمال. مثل كلمة "بال" وهي فارسية. بدل مِسحاة. وكلمة "جِهَارْسُو" وهي فارسية لملتقى الطرق. بدل مربَعة. و "خِيار" بدل قِثاء. (4)

وقد تختلف معاني الكلمات بين الحِرَفيين والعلميين وغيرهم، فيطلق عليها لقب اصطلاح عند الحرفيين والعلميين، ككلمة الزاوية يختلف معناها بين البناءين، وعلماء الهندسة. ورجال الطرق الصوفية. وكلمة الزمام - وهو الخيط الذي يشد به - ثم خصه أهل الإبل بالحلقة التي توضع في أنف البعير، ثم استعمل في سجلات الوزارات في عهد الخليفة المهدي العباسي. (5)

- المحور الثاني (بداية ظهور المصطلحات) :

ذهب ابن جني في خصائصه إلى أن أصل اللغة «إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي ولا توقيف. وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا. يحتاجون إلى

الإبانة عن الأشياء، والمعلومات، فيضعون لكل سيمة لفظا، إذا ذكر عرف به مسماه ». [6]

وقريب منه قول الجاحظ «وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في كلام العرب اسم. فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف. وقدوة لكل تابع. ولذلك قالوا : العرَض والجوهر وأَيْسَ وليس، وفرقوا بين البطلان والتلاشي، وذكروا الهَذية والهوية والماهية، وأشباه ذلك». [7]

والهذية (بفتح الهاء) نسبة إلى كلمة هذا. والهوية (بضم الهاء) نسبة إلى كلمة هو. والماهية نسبة إلى ما ماهيهْ (بهاء السكت). والعرض والجوهر معلومان في علم الأشياء. وأيْسَ لغة في ليس. والتلاشي الإضمحلال. قال الشيخ محمد رضا : " كلمة مولدة لم يعرفها العرب، وهي منحوتة من لاشيء، وعهدها بهذا التوليد قديم " [8] والنحت اللغوي نفسه اصطلاح، وأصل معناه اللغوي البَرْيُ والقَشْر. وجاء في القرآن بهذا المعنى في أربعة مواضع : (الحجر، والاعراف، والشعراء، والصافات). ولعل كلمة "الدُّخ" منحوتةٌ من الدّخان في قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن صياد : خبَأْتُ لك خبيئاً. قال : هو الدُّخ .

وقد تنحت الجملة بكاملها، نحو : بسمل وحمدل وحوقل وحسبل وسمعل وحيعل. والمراد بها واضح معهود. ودمعز. أي أدام اللّه عزك، وطلبق. أطال اللّه بقاءك، وجعفك جعلني اللّه فداك، وبأْبَأَ. بابي أنت وأمي. وهي مستحدثة في الإسلام. [9]

- المحور الثالث (تطور المصطلحات) :

هي - بالضرورة - تابعة لحدوث مسميات لم تكن مألوفة، فتوضع لها أسماء تناسب خاصيتها، أو ظاهرها، أو مخترعها. وغالبا ما تحدث تبعا للتطور العلمي في مخترعاته، أو توضع لها اصطلاحات يختص بها المعنيون بذلك العلم، وليست في متناول جميع الناس، ومن هنا كانت الإصطلاحات العلمية، مرهونة بالمخترعات العلمية من فلسفية، وطبية، وجراحية، وصيدلية، وعتادات عسكرية.

ولجرجي زيدان قوله : «وقد تكاثرت الإصطلاحات الكلامية، والصوفية، والفقهية، والأصولية، حتى صارت تعد بالألوف، فاضطروا إلى وضع المعجمات الخصوصية لتفسيرها، وشرح ما اكتسبته من المعاني المختلفة باختلاف تلك العلوم». (10)

ونضرب لذلك بعض الأمثلة للإصطلاح العلمي، كيف يختلف من علم إلى آخر. مثل مسَمَّى جزاي الجملة الإسنادية، فالنحاة يطلقون عليهما الفعل والفاعل، أو ونائب الفاعل، أو المبتدأ والخبر، وأهل البلاغة يطلقون عليهما مسندا ومسندا إليه، والمناطقة يطلقون عليهما الموضوع والمحمول، أما الأصوليين فيطلقون عليهما المحكوم به والمحكوم عليه. ومثل : النسخ. هو عند النحاة : تغيير إعراب المبتدأ والخبر لإختلاف العوامل النواسخ، وعند الأصوليين : تغيير حكم شرعي بحكم شرعي متأخر. وهذان اصطلاحان علميان. وأما عند النساخين فهو نقل كلام مكتوب بكتابته ثانيا. وعند القرامطة : هو انتقال الروح بعد مفارقتها الجسد إلى جسد جديد .

ملاحظة : لا يفوتني التنبيه عليها. ذلك أن الناس يتصورون أن المصطلحين يلتقون في مجمع لوضع الإصطلاح على ضابط، أو قاعدة، على نحو " المجمع العلمي العربي بدمشق " أو " المجمع اللغوي بالقاهرة " أو " مجمع الفقه الإسلامي بجدة ". كما تصوروا ذلك في نشوء الإجماع. وليس الواقع كذلك، فالإصطلاح إنما ينتج عن طريقة الإستقراء لمسائل متعددة تتحدد في ضابطها، فيصطلحون على وضع لقب لها، أو قاعدة، وقد تحدث اصطلاحات جديدة في أزمان متعاقبة، حسب المستجدات الطارئة، وكلما حدث جديد، تعين وضع اسم له، أو اكتشاف علمي جديد، تعين وضع اصطلاح له، وليس من اختراع المدون الأول، فليست الإصطلاحات النحوية كلها من وضع سيبويه، ولا ضوابط العروض كلها من وضع الخليل، ولا قواعد البلاغة كلها من اختراع الجرجاني، كما أنه ليس بالضرورة أن يتفق أهل العلم الواحد، على مصطلح واحد، فهذا الإمام الشاطبي يخرج عن اصطلاح الأصوليين. فيقيم السبب مقام العلة، حيث

اشترط فيه أن يكون وصفا ظاهرا، منضبطا. - وهما شرطان للعلة عند جمهور أهل الأصول -، أو يقيم الحكمة مقام العلة. وينتهي بقوله : «على أنه قد يطلق هنا لفظ السبب على نفس العلة، لارتباط بينهما. ولا مشاحة في الإصطلاح»[11] وبعد التسليم بأن "لا مشاحة في الإصطلاح"، فلا مانع من أن نطلق على القاعدة وعلى الضابط كلمة اصطلاح، ويكون معنى الإصطلاح أعم وأشمل، والتفصيل في هذه القضية يقتضي بحثا مستقلا لايسمح به ضيق الوقت .

ولتسمحوا إلى أن أُذَكِّر باصطلاح ظهر في أواخر القرن الرابع في ميدان التأليف، وهو "الموسوعة ودائرة المعارف". أما الموسوعة، فتقتضي قواعد اللغة العربية أنها اسم مفعول وسِع المتعدي، إلا أنه لم يسمع استعمال اسم المفعول في لغة العرب، من الفعل وسع. ولعل ابن النديم أول من وضع موسوعة لمختلف العلوم واصطلاحاتها في كتابه "الفهرست". ذكر فيه عشرة علوم بما فيها "الكيميا" و "التكنولوجيا". وتوفي 385 هـ . ثم جاء بعده فخر الدين الرازي، فألف كتابه حدائق الأنوار في حقائق الأسرار. أورد فيه ستين علما. وتوفي 606 هـ . ثم جلال الدين الدواني إلى جلال الدين السيوطي في كتابه النقابة جمع فيه أربعة عشر علما، ثم وضع عليه شرحا سماه اتمام الدراية . [12]

ومن حيث الإصطلاح في التسمية، فالفرق بين الموسوعة ودائرة المعارف : أن الأولى تختص بعلم معين، كالموسوعة الفقهية التي صدر منها خمسة عشر جزءا، وكالفصل في الملل والنحل للحافظ بن حزم. والملل والنحل للشهرستاني. وموسوعات أخرى فقهية لم تتم .

أما دائرة المعارف فتشمل مختلف العلوم، أو العدد الكثير منها. ومن أهمها إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد لـ محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري ت 349 [13] ورسائل إخوان الصفا. ذكر طه حسين أنها أوفى كتاب في تاريخ الفلسفة الإسلامية [14] ومفتاح العلوم للسكاكي المتوفي 626 هـ . وأخيراً كتاب "المعرفة" على الطريقة الحديثة بالشكل والتصوير والتلوين . ودائرة معارف فريد وجدي .

الهوامش والمصادر والمراجع

1- راجع قواعد الصرف، وتاج العروس. ج 2، ص 182.

2 - سيرة ابن هشام. وعيون الآثار لإبن سيد الناس. ولم يذكر كلمة اصطلح غيرهما.

3 - راجع أساس البلاغة، وفقه اللغة ص 141. د/ عبد الواحد وافي. ومعجم متن اللغة الشيخ أحمد رضا، وأصول الفقه الميسر، ص 31 - 32 سمح عاطف الزين.

4 - البيان والتبيين، ج 1، ص 32 - 33 وانظر فقه اللغة، ص 232.

5 - معجم متن اللغة، والتراتيب الإدارية عبد الحي الكتاني.

6 - معجم متن اللغة ج 1، ص 17.

7 - البيان والتبيين ج 1، ص 129.

8 - معجم متن اللغة مادة لشا.

9 - فقه اللغة، ص 180 - 181، د/علي عبد الواحد.

10 - تاريخ آداب اللغة العربية. ج 2، ص 38 (الطبقة الثانية. الهلال بمصر).

11 - الموافقات ج 1، ص 265. تعليق د/ عبد الله دراز.

12 - مفتاح السعادة، ج 1، ص 14. بطاش كبرى زاده - دار الكتب الحديثة.

13 -مفتاح السعادة، ج 1، ص 15.

14 - تعليق وتقديم طه حسين، ج 1، ص 11 - 13.